

الباب الثاني  
في القومية العربية

obeykandl.com

## ١ — القومية العربية في العصور الوسطى

في العصر الأموي نشب صراع عنيف بين القومية العربية ويمثلها الأمويون ، والقومية الفارسية ويمثلها الموالى الفرس . فقد كانت الدولة الأموية دولة عربية صهيمة اعتمدت على العناصر الخريزية في الحكم والإدارة ، وحرمت الموالى — المساميين من غير العرب — من حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولذا كره الموالى الحكم الأموي وسعوا جاهدين في إسقاط الدولة الأموية . ولما كان الموالى لا يستطيعون أن يدعوا لهم حقاً في الخلافة ، فقد كانت الخلافة في ذلك الوقت حقاً للعرب عامة ولقرش خاصة ، فقد بحثوا عن بيت عربي قرشي يستطيعون أن ينقلوا إليه حق الخلافة من البيت الأموي . وأخيراً قرّر رأيهم على أن يحلّ البيت الهاشمي مكان البيت الأموي ، لأن الهاشميين عرب ، وذوى قربي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينظر المسامون والعرب إليهم أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة وقد اغتصب الأمويون منهم هذا الحق . ورأى الموالى أن المناداة بانتقال الخلافة إلى الهاشميين يصبغ حركتهم السياسية والقومية بصبغة دينية ويضمن إقبال الناس على تأييدها .

كان هدف الموالى الحقيقي القضاء على السيادة العربية ، وإعادة المجد

الفارسي الزائل ، وإقامة دولة فارسية في مظهرها وحقيقتها . وأدرك الموالي أن الهاشميين حينما يصلون إلى الحكم بمساعدتهم ، فسيكون ظاهر الحكم للهاشميين وباطنه للفرس ، فيتولى الموالي الفرس المناصب الكبرى ، ويديرون دفة الدولة تاركين للهاشميين أبهة الخلافة ومظهرها الخارجي . وأدرك نصر بن سيار الوالي الأموي العربي في خراسان نوايا الموالي الفرس ، فأسرع يحذّر العرب ، ويدعوهم إلى ترك الانقسام والعصبية القبلية التي كانت نيرانها قد تأججت بين النزارية واليمانية ، وصاغ تحذيره في عدة أبيات جاء في ختامها :

فمن يكن سائلا عن أصل دينهم  
فإن دينهم : أن تقتل العرب

وخُدع الهاشميون بوعود الموالي للخلافة ، وأعمتهم شهوة الحكم وبريق الخلافة عن إدراك خطر الاعتماد على القومية الفارسية ، ولم يدركوا أنهم حين يحاربون الدولة الأموية فهم يحاربون في الوقت ذاته ( القومية العربية ) ، فقد كان الأمويون قوميين عربا تماما . فقد بدأ الهاشميون العباسيون دعوتهم في خراسان مركز القومية الفارسية ، واعتمدوا على دعاة من الفرس . كتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني : « إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم بالعربية إلا قتلته فافعل . . . » . بل إن أحد الدعاة العرب ، وهو قحطبة الطائي ، تناسى عربيته فخطب في أهل خراسان يحقر العرب ويعظم الفرس .

تكاثف الهاشميون والموالي الفرس وأسقطوا الدولة الأموية العربية ،

وقامت دولة عباسية تعتمد على العناصر الفارسية ، فكان هذا هزيمة للقومية العربية وانتصارا للقومية الفارسية ، ولكن إلى حين . اعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس عليهم ، فقد كانوا في كثير من المناسبات يكيّون المديح لهم ويقرّون بحمليهم . فكان أبو جعفر المنصور يقول ، « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » ، وأوصى المنصور ابنه فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك . . . » . وهناك كثير من النصوص يعترف فيها العباسيون بفضل الفرس ، ولذا وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى رد هذا الجميل ، فأسلموا إليهم زمام الأمور ، وأفسحوا أمامهم المجال ، فبعد أن كانت المناصب الكبيرة زمن الأمويين مقصورة على العرب وكان الموالي بعيدين عنها أصبح منهم الولاة والوزراء . فيقول السيوطي في كتابه ( تاريخ الخلفاء ) : « إن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدّمهم على العرب . وكثر ذلك حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها » .

تولى الموالي الوزارة ، وهي أرقى مناصب الدولة ، فتولاها أبو سلمة الخلال ، ثم خالد بن برمك جدّ البرامكة وغيرها . وأسند هارون الرشيد الوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكي وفوضه تفويضا مطلقا فقال : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى » . وبلغت

أسرة البرامكة درجة من الجحد والرفعة يتضاءل دونها مجد الخليفة ورفعته . فقد عاشوا في نعيم وترف ونافسوا الخليفة في مظاهر العظمة والأبهة . وأصبح الأدباء والكتّاب من الموالي يعبرون عن آمالهم وأمانيتهم ، ويفتخرون بقومييتهم وجنسيتهم في جوارحهم بعيد عن القسوة والاضطهاد الذي كان يحيط بهم . الأمويون ، مستندين على النفوذ الكبير الذي أصبح للعناصر الفارسية في العصر العباسي .

غضب العرب لانتصار القومية الفارسية على قومييتهم العربية ، وبدأ صراع عنيف بين القوميتين . ونتج عن هذا الصراع ظهور ( الشعوبية ) أو بهبارة أخرى ( التعصب للقومية ) . ولفظ الشعوبية مأخوذة من ( الشعوب ) جمع ( شعب ) وهو ( جيل الناس ) ، وهو أوسع من القبيلة وأشمل . وذهب بعض المؤرخين أنها مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ) وقال بعض المؤرخين : إن المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل قبائل العرب . ويسمى الجاحظ وابن عبد ربه الطائفة المعادية للعرب بالشعوبية . ويعرف كرد على ( الشعوبية ) بأنهم قوم متعصبون على العرب يفضلون عليهم العجم .

الشعوبية أو التعصب للقومية ، هي تعصب كل شعب لشعبه ، وكل قوم لقومييتهم ، وقد ظهرت الشعوبية في العصر العباسي الأول وإن كانت جذورها وأصولها في العصر الأموي ، إذ أن الشعوبية في العصر العباسي هي حلقة من

حلقات سلسلة الصراع بين العرب والموالي . وبعد أن كان الموالي في العصر الأموي يكافحون من أجل مساواتهم بالعرب ، أصبحوا في العصر العباسي يرون أنهم أفضل من العرب وأرقى منهم حضارة ونظماً . فقد كان الأمويون يعتمدون على العنصر العربي ويحتقرون الموالي ويحرمونهم من المناصب والوظائف ، ولذا كافح الموالي للوصول إلى مرتبة العرب . ثم قامت الدولة العباسية على أكتاف هؤلاء الموالي وسيطروا على شئون الدولة العباسية فعرفوا قدرهم وشعروا بأهميتهم فتكبروا وتجبروا ، واعتبروا أنفسهم أرفع من العرب شأنًا ومنزلة .

ولكن ، هل تناسى الخلفاء العباسيون قوميتهم العربية ؟ كان الخلفاء العباسيون عرباً هاشميين من قبل الأب ، وكانوا يفخرون بذلك ، وهم وإن اعترفوا بفضل الفرس فلم ينسوا عربيتهم ، وكان الخلفاء إذا شعروا بطغيان الفرس على نفوذهم نكّلوا بهم ، كما فعل المنصور بأبي مسلم الخراساني ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير ، ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب . كانت المناصب الكبرى حقا في أيدي الفرس ، ولكن كان الخليفة عربياً هاشمياً ، وكان له قواد من العرب ، كما له قواد من الفرس ، وكان له ولاية من العرب ، وولاية من الفرس . كل هذا يجعلنا نقول : إن الدولة العباسية جعلت كفة الفرس راجحة ، ولكن العباسيين لم يتخلوا عن القومية العربية ، وهذا جعل الصراع مستمرا في العصر العباسي .

زاد نفوذ الموالي وخاصة الفرس، فامتلات قصور الخلفاء بالخدم والأعوان من الموالي، وأصبحت المناصب الكبرى كالوزارة مقصورة على الفرس، وانتشرت العادات والتقاليد الفارسية، واحتفل العباسيون بالأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان، كما انتشرت الثقافة الفارسية. ولكن العرب لم يسكتوا على نفوذ الموالي المتزايد، بل قاوموه وحاولوا الحد منه. واتخذ صراع العرب والموالي أشكالا مختلفة. أبرزها الدس عند الخليفة، ولاشك أنه كان من عوامل نكبة البرامكة دس الحزب العربي للبرامكة عند الرشيد وتحريره عليهم. كما كان بعض الفرس الذين يتولون المناصب الكبرى يستغلون ثقة الخليفة فيهم فينكرون بالعرب مثل الأفشين قائد جيوش المعتصم وكان أعجميا يكره العرب. ومن مظاهر هذا الصراع، الصراع الأدبي، فتهاجوا بالأشعار، وافتخر كل فريق بقوميته.

انتصر الموالي الفرس على العرب سياسيا وإداريا، ولكن العرب انتصروا قوميا ودينيا ولغويا. تولى الموالي المناصب السياسية والإدارية الكبرى وسيطروا على الحكومة العباسية، ولكن الإسلام انتصر على ديانات الموالي القديمة وخاصة المجوسية، كما أن اللغة العربية واللغة أماس القومية استطاعت أن تقف دائما على قدميها، وفشلت مساعي الموالي الفرس لإحلال اللغة الفارسية مكان اللغة العربية، بل أقبل الموالي على تعلم اللغة العربية وإجادتها.

تجلت الشهوية في ثلاث نزعات ومظاهر:

أولا : حاول الشعوبيون أعداء القومية العربية الخط من شأن العرب ،  
وتفضيل سائر القوميات .

ثانيا : نادى أنصار القومية العربية أن الأمة العربية خير الأمم على  
وجه الإطلاق .

ثالثا : وقف البعض موقفا وسطا، وحاووا أن يحفظوا التوازن بين القوميات  
دون تفضيل قومية على أخرى ، ولا أمة على أمة .

أولا : نادى الشعوبيون من غير العرب ، أن العرب لا يمتازون كأمة عن  
غيرهم بشيء . فإن كان الرومان يفخرون بحضارتهم القديمة ومدنهم الخالدة ،  
وإن كانت الهند تفخر بحكمتها وطبها وأنهارها وخيراتها ، وإن كانت الصين  
تفخر بصناعاتها وفنونها الجميلة ، فماذا تفخر أمة العرب ، وبلادها قاحلة ،  
يعيشون في بداءة وتأخر ، وكانوا في جاهليتهم يثدنون بناتهم ، ويتحاربون  
ويغزون ويسلبون . وتساءل الشعوبيون : أين ملك العرب من ملك الفراعنة  
والأكاسرة والقيصرة ؟ إن كانوا يفخرون بالنبوة فجميع الأنبياء عدا أربعة  
ليسوا عربا ( هود ، صالح ، اسماعيل ، محمد ) ، وإن كانوا يفخرون بالشعر  
فقد كان لليونان والرومان شعر عظيم . وإن فخر العرب بالإسلام ، فليس  
الإسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس جميعا ، بل إن العرب كانوا ألدّ  
الناس مقاومة للرسول والإسلام . بل اعتبر الشعوبيون أن الفرس أخطب من  
العرب وأشجع منهم .

بدأ دعاة الشعوبية دعوتهم مستندين على تعاليم الإسلام نفسه ، فهو لا يفضل قوما على قوم ، فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم . ثم تدرجوا من ذلك إلى تحقير العرب ، وتفضيل سائر الأمم والقوميات عليهم ، وساعدهم على ذلك سيطرة الفرس على الحكم في الدولة العباسية .

كانت الشعوبية نزعة أكثر منها عقيدة ، فهي نوع من الديموقراطية تحارب أرسقراطية العرب . ومما قوّى الشعوبيين اعتمادهم على النزعة الوطنية والقومية بجانب العصبية الدينية . فقد فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب وقضوا على الدول والقوميات ، وأهل هذه البلاد ليسوا عربا ، وكان كثير منهم يحتمون إلى قوميتهم واستقلالهم ، وكان بعضهم يحقدون على العرب لتغلبهم عليهم وفرضهم قوميتهم العربية ، فاستغلّ الشعوبيون هذه النزعة القومية . كما كان بعض أهالي هذه البلاد المفتوحة قد اعتنقوا الإسلام عن رهبة لا عن رغبة ، كما احتفظ بعضهم بديانتهم الأصلية ، ولا شك أنهم حقدوا على العرب إذ غلبوهم وفرضوا عليهم دينهم الإسلامي ، ولذا جنح الشعوبيون إلى الزندقة ليحاربوا الإسلام .

لم يكن الشعوبيون حزبا واحدا منظمًا متحدا . بل كان الشعوبيون أجناسا مختلفة وشعوبا متفرقة ، منهم ، الفرس ، ومنهم قبطن مصر ، و بربر المغرب ، وروم الشام ، وغيرهم . وصُبغت شعوبية كل جنس من هؤلاء بصبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال ، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد .

بدأ الشعو بيون أو القوميون الفرس يضعون الكتب في مناقب العجم ،  
ووضع بعضهم كتباً في ذم العرب وذكروا مثالبهم ، واختلقوا كثيراً من القصص  
التي تشين العرب وادّعوا أنها حقيقية ، بل وضعوا بعض الأحاديث النبوية في  
فضل الفرس وأسندوها إلى الصحابة والتابعين وردّ العرب على الفرس ،  
فوضعوا الأحاديث الكثيرة في تفضيل العرب . واختلق الشعو بيون أحاديث  
نسبوها إلى علي بن أبي طالب ، واستغلّ الفرس سلمان الفارسي استغلالاً عظيماً ،  
فوصفوه بالزهد والحكمة والعلم وجعلوه في مقدمة محسابة الرسول . بل غير  
الشعو بيون في المسائل الفقهية فأدخلوا فيها ما يتفق مع أهوائهم وسيولهم ، وخاصة  
في باب الكفاءة في الزواج ، كما بدّل الشعو بيون الفرس في التاريخ ، فنسبوا  
إلى ملوكهم الحكمة والعظمة والقوة ، وبالغوا في ذلك كثيراً ، وصوّروا الفرس  
بأنهم أرقى أمة خلقت وزعموا أن الفرس من ولد إسحاق بن إبراهيم ، والعرب من  
ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وإسحاق ابن حرّة هي سارة ، وإسماعيل بن أمة  
هي هاجر فالفرس أفضل من العرب لأنهم أبناء الأحرار ، واستعان الشعو بيون  
بالشعراء والأدباء في تبيان فضل غير العرب على العرب ومن أبرز الشعراء الأعاجم  
الشعوبيين بشار بن برد ، والحزيمي ، والمتوكلي ، وديك الجن ، وكان الشاعر  
الأخير يقول : ماللعب علمينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ،  
وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلاً ممناً قُتل به ، ولم نجد الله عز وجل  
فضلهم علمينا إذ جمعنا الدين

ثانياً : ذهب العرب إلى أنهم خير الأمم ، إذ قد عاشوا حياتهم متمتعين

باستقلالهم ، فلم تستطع دولتنا الفرس والروم أن تسيطر على الحجاز في الجاهلية رغم سيطرتهم على البلاد المجاورة في العراق والشام ومصر ، بل إن الفرس تقربوا إلى عرب الحيرة كما تقرب الروم إلى عرب الغساسنة ثم ظهر الإسلام فتمكن العرب من القضاء على الدولة الفارسية ، وانتزعوا من الروم الشام ومصر كما نادى العرب بأنهم أحسن الأمم أخلاقاً وصفات فهم أكرم الناس للضيفان ، وأنجدهم للمظلوم ، هذا إلى فصاحتهم ، وبلاغتهم ، وسرعة بديهتهم ، والعرب أحفظ الناس لأنسابهم وقد أكرم الله العرب فأنزل الإسلام ومحمد بينهم ، والعرب هم الناشرون للإسلام الحامون لدعوته ، وهم الذين خلصوا سائر الأمم من كفرهم وإلحادهم وهدوهم إلى الدين القويم .

ثالثاً : وقعت بعض الفئات موقفاً وسطاً من هذا الصراع ، فذهبوا إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم ، ولا أية أمة أفضل من أية أمة ، والناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد . وإنما التفاضل بين الأفراد لا بين الأمم . وليس تفاضل الناس فيما بينهم بأبائهم وأحسابهم ولكن بأفعالهم وأخلاقهم . وكان لسان حال هذه الفئة الآية الكريمة ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ، والحديث الشريف ( ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ) . وكان المأمون الخليفة العباسي ، من هؤلاء المعتدلين ، فكان يقول : ( الشرف نسب فشریف العرب أولى بشریف العجم من وضع العجم بشریفهم ، وشریف العجم أولى بشریف العرب من وضع العرب بشریفهم ) .

ما موقف الخلفاء العباسيين من الشعوبية؟

تعصب الخلفاء العباسيون للإسلام ، ولم يتعصبوا كثيرا للقومية العربية ، فحاربوا الزندقة ، ولم يحاربوا القومية الفارسية ولا العصبية والشعوبية الأعجمية . فقد كان معظم الخلفاء العباسيين من أولاد جوارى غير عربيات . وكان غير العرب يتولون المناصب الكبرى في الدولة وقد سيطروا على دواوينها ، فلم يتدخل الخلفاء في صراع الحزب العربي مع الحزب الفارسي . وضاق المعتصم بالعرب والفرس فاستعان بالأتراك وظن أنهم بعيدون عن العصبية والشعوبية ، ولكن سرعان ما زاد عددهم وبدأوا يلعبون دورهم في ميدان الشعوبية ، وبدأت القومية التركية صراعا عنيفا مع القومية الفارسية من جهة والقومية العربية من جهة أخرى ، واضطرت القوميتان العربية والفارسية أن تتحدا أحيانا للوقوف في وجه طغيان القومية التركية .

كان الخليفة العباسي المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ أول من أتاح الفرصة للأتراك ليستحوذوا على السلطة والسيطرة . فقد استقدم سنة ٢٢٠ هـ أعدادا ضخمة من الأتراك ، وزاد عددهم في بغداد حتى ضاق بهم أهلها . وبدأ دور جديد من العصبية القومية ، فقد كان النزاع قبل بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والأتراك . وكان نفوذ العرب قد ضعف كثيرا ، فاتجه الأتراك إلى إضعاف الفرس ، وبدأت الدولة العباسية تصطبغ بالصفة التركية . واستمر الخليفة الواثق ، الذي خلف المعتصم ، في الاعتماد على الأتراك ،

بل نصّب اشناس التركي سنة ٢٢٨ هـ سلطانا ، فكان أول خليفة يستخلف سلطانا . وفي سنة ٢٣٢ هـ تولى الخليفة المتوكل فبدأ عهد جديد نسميه في التاريخ الإسلامي « عصر نفوذ الأتراك » .

ضاق المتوكل بنفوذ الأتراك ، ففكر في أن ينقل عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى دمشق ، وفعلا انتقل إليها سنة ٢٤٣ هـ ، وأراد إحياء القومية العربية والاعتماد على العنصر العربي ، ولكن الأتراك اضطروه إلى العودة إلى العراق بعد شهر ثلاث ، وسرعان ما دبر الأتراك مؤامرة قتل فيها المتوكل واشترك فيها ابنه ( المنتصر ) الذي خلف أباه في الخلافة سنة ٢٤٧ هـ . كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فسلك من كان قبله مات حتف أنفه . وكان مقتل المتوكل معناه ومغزاة ، فهذا إنذار لكل من يتولى الخلافة بأن يدعن إذعانا تماما للأتراك ، وأن كل خليفة يناوى الأتراك مصيره القتل . وأصبح الخلفاء بعد المتوكل ألعبوبة في يد الأتراك ، فلم يعد لهم من سلطان الخلافة إلا المظهر مثل الخطبة والعملة .

انتهى عصر نفوذ الأتراك سنة ٣٣٤ هـ ، وبدأ عصر جديد يسمى ( عصر إمرة الأمراء ) استمر عشر سنوات إلى سنة ٣٣٤ هـ . وقد شهد هذا العصر صراع عدة قوميات من أجل السلطة والنفوذ . فقد شعر الخلفاء بضعفهم فقوضوا أمور الدولة إلى شخصية قوية كانوا يلقبونها بأمر الأمراء . وحاول الفرس والعرب والأتراك أن يستأثروا بهذا المنصب الخطير . وفي سنة ٣٣٤ هـ استطاع

الفرس ، يمثلهم بنو بويه ، السيطرة على دفعة الأمور في الدولة العباسية ، وظلت لهم الكلمة إلى سنة ٣٤٧ هـ ، وعادت في هذه السنوات راية القومية الفارسية ؛ ولكن القومية التركية لم تعترف بالهزيمة ، فظل السلاجقة الأتراك يناضون بني بويه حتى تمكنوا من القضاء على نفوذ البويهيين ، وخضعت الخلافة العباسية من جديد للنفوذ التركي .

ضعفت الدولة العباسية ، نتيجة لصراع القوميات العربية والفارسية والتركية ، ونتج عن ضعف السلطة المركزية أن استقلت أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية ، وانقسمت المملكة الإسلامية إلى مناطق نفوذ للقوميات المختلفة . . فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثالث وفي القرن الرابع ، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب ، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب ، وبعض قبائل البربر ، والفاطميون وهم عرب . ومصر والشام يحكمها الطولونيون ثم الإخشيديون وهم أتراك ، ثم الفاطميون وهم عرب . وحكم الحمدانيون في الموصل وحلب وهم عرب . أما بلاد العراق فقد حكمها الأتراك باسم الخليفة العباسي ونازعهم السلطان عليه الحمدانيون وهم عرب ، ثم استولى عليها البويهيون وهم فرس . أما بلاد فارس فقد انقسمت إلى عدة أقسام : الدكغية في كردستان وهم عرب ، والصفارية في فارس وهم فرس ، والسامانية في فارس وما وراء النهر وهم فرس ، والزيارية في جرجان وهم فرس ، والحسنوية في كردستان وهم أكراد ،

والبويهية في جنوبي فارس وهم فرس ، والغزنوية بأفغانستان والهند  
وهم أتراك .

تميزت كل قومية ببعض الصفات ، وطبعت كل إقليم سيطرت عليه  
بطابعها الخاص . فطابع التركية عب الجندية والفروسية ، وكثرة النزاع والخلاف  
بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد كالبدو في تعصبهم للقبائل ، واحتقارهم لأهالي  
البلاد التي يحكمونها ، وانتصارهم لمذهب أهل السنة ، وعدم ميلهم إلى الفلسفة  
والجدل في الدين ، وتقريبهم علماء الدين وخاصة علماء الحديث ، وحبهم  
للأموال وانتزاعها من رعاياهم ومصادرتها من الأثرياء دون الاهتمام باستثمارها .  
أما الفرس فطابعهم الظهور والترف ، فقد ورثوا حضارة قديمة لها تقاليدها ،  
ولهم قدرة على تنظيم الحكم ، ومعرفة واسعة بتنمية الثروات ، ولهم عقول مثقفة  
تتذوق العلم والأدب ، واهتموا بالفلسفة فقد عرفوا قبل إسلامهم كثيرا من  
المذاهب الدينية . ومال الفرس إلى الترف والنعيم ، وأورثهم اضطهاد الدولة  
الأموية لهم كراهية للعرب ، فكانوا ينتهزون الفرص للأخذ بالنار  
من العرب .

أما العرب فطابعهم الميل إلى البداوة ، وحكم القبيلة ، والفخر بعروبيتهم  
واحتقار الأجناس والقوميات الأخرى ، والزهو بالسيف والقلم ، يحبون القتال  
والثورات ، أسرع الناس إلى التأقلم والتحضر فإذا تحضروا أسرفوا في الترف

والنعم، أحب شيء إلى العرب الأدب والشعر لا الفلسفة والعلم ولكنهم يستهينون  
بالعلماء والفلاسفة من الموالى .

ثم جاءت نهاية الدولة العباسية على أيدي المغول ( التتار ) ، فقد دخل  
هولاكو ( بغداد ) معتقل القومية العربية ، فذلك أعظم ركن للعروبة والإسلام ،  
وخرّب بغداد مدينة السلام ، وقضى على معالم الحضارة ، وتتابعت غارات المغول  
على القومية العربية .

دخل هولاكو بغداد فخرّبها وقتل الخليفة المستعصم وقتل كبار الفقهاء  
ورجال الدولة ، واستولى على التحف والأموال ، وأحرق قبور الخلفاء وألقى  
بالكتب التي حوت التراث العربي في نهر دجلة ، حتى قيل إنه أقام بكتب  
العلم ثلاثة جسور على دجلة . في آخر القرن السابع ( ٦٩٩ هـ ) دخل غازان  
التتري بلاد الشام فأعمل التخريب والنهب والسلب . وفي أوائل القرن التاسع  
( ٨٠٣ هـ ) خرّب مدينة بغداد وذبح كثيرا من أهلها ، وخرّب ثلث دمشق  
وبعض حلب ، وقضى فيهما على المدارس والجوامع وخزائن الكتب . ثم  
ارتحل عن دمشق ؛ يحمل منها أصحاب الحرف والصناعات بجانب  
الأموال والتحف .

وكما تعرضت القومية العربية لأخطار المغول ، تعرضت لأخطار الصليبيين .  
فقد ادّعى الصليبيون أن المسامين يتعرّضون للحجاج المسيحيين القاصدين  
الأماكن المقدسة في فلسطين فيوقعون بهم الأذى . ولغايات في النفس جثم

بعض رجال الدين في الغرب حوادث الاعتداء على حجاجهم في الأرض المقدسة، فأثاروا ضغائن النصارى والأوروبيين على المسلمين والعرب . وحرص البابا أبناء النصرانية على حمل الصليب ليفتحوا الأماكن المقدسة ، ومنحهم غفرانا عن كل خطاياهم ، وأحل لهم ما تجرحه أيديهم وجوارحهم ، حاميا بسيادته الروحية عيالهم وأموالهم مدة غيابهم ، فسار بعضهم مدفوعا بالحماسة الدينية ، ومنهم الطامع في المغانم والأسلاب . وفي أواخر سنة ٤٩٠ هـ ( ١٠٩٦ م ) اجتمعت في القسطنطينية جيوش الصليبيين ، وبمسد مصاعب شديدة تقدموا ففتحوا سواحل الشام واستولوا على بيت المقدس ، وارتكبوا كثيرا من المذابح والفظائع . فقد ذكر المؤرخ ( ميشو ) في كتابه ( تاريخ الحروب الصليبية ) أن الصليبيين بعد فتحهم مدينة معرة النعمان - وكانت من أعظم مدن الشام - قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع المحتبئين في السرايب ، وأهلكوا صبورا ما يزيد على مائة ألف إنسان . كما وصف ( ميشو ) فتح الصليبيين للقدس فقال : تعصب الصليبيون في القدس تعصبا أعمى لم يسبق له نظير ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعلى البيوت والبروج ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ، ويجرونهم في الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح في المسلمين أسبوعا ، حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينبج اليهود كالغرب من الذبح . وفي

طرابلس أحرقت الصليبيون ( دار الحكمة ) وكان بها مائة ألف مجاهد .  
أراد الله سبحانه وتعالى أن ينقذ الإسلام والقومية العربية ، فظهر القائد  
العظيم صلاح الدين الأيوبي ، فبدأ زحفه في سنة ٥٨٣ هـ ( ١١٨٧ م ) ، وهزم  
الصليبيين في حطين ثم طبرية ثم عكا ثم استولى على كثير من مدن الساحل  
من يافا إلى بيروت ، وتوج نصره بالاستيلاء على بيت المقدس . واستمر  
صلاح الدين يحاربهم طويلا . مما لا مجال هنا لذكره . حتى وقع صلاح الدين  
الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا في سنة ٥٨٨ هـ .

وكا وقعت القومية العربية في الشرق في محنة ، لاقت القومية العربية  
في الغرب محنة أخرى فقد كان سقوط بلاد الأندلس في أيدي الأسبان ضربة  
عنيفة أصابت القومية العربية . فمن هذه البلاد انبعث نور العرب في غربي أوروبا ،  
فقد كانت الأندلس معقل القومية العربية في قارة أوروبا طوال ثمانية قرون  
وأدرك الأسبان ذلك فعملوا على إبادة العرب حتى إنهم لم يعفوا النساء والأطفال  
والشيوخ من القتل . كما أخذ الأسبان بعمدون المسلمين من أبناء العرب بالقوة ،  
مدعين أن العرب كانوا نصارى ، ومن رفض منهم سيق إلى ديوان التحقيق  
الديني فأحرق منهم عدد كبير . ورأى الأسبان أن طريقة الإحراق طريقة  
بطيئة لإبادة الجنس العربي ، ولذا اقترح الكردينال رئيس الأساقفة لتطهير  
أرض اسبانيا من العنصر العربي أن يقتل بالسيف كل عربي لم يعتنق المسيحية  
بينما رأى أحد كبار الأسبان ويدعى ( بليدا ) أن يقتل جميع العرب بدون  
استثناء ، لأنه من الصعب أن يعرف من اعتنق المسيحية عن إيمان واقتناع ، بينما

من السهل على المولى أن يميز في الدار الآخرة بين المؤمنين والضالين . ويقول قولته: لما فتحت العرب اسبانيا لم يرغبوا قط النصرارى الوطنيين على اعتناق الإسلام ، ولما استولى الاسبان على غرناطة أراد الكردينال كسيمنس أن ينصّر كل العرب ، دفعته إلى ذلك غيرة دينية ، أو طموح إلى إنشاء شعب جديد يخضع لصوائمه ، وأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به . ويقول سيديليو إن عدد من فقدتهم اسبانيا يبلغ ثلاثة ملايين ، ويكمل لبون فيقول إن من سوء حظ اسبانيا أن هذه الثلاثة ملايين من الرعايا الذين حرمتهم اسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية في العلم والصناعة .

أباد الاسبانيون في الأندلس كل أثر للعرب والقومية العربية ، فخرّبوا بيوتهم ، وقضوا على كتب العرب ، فقد أمر الكردينال كسيمنس - أعدى أعداء الإسلام والعروبة - في سنة ١٥١١ بإحراق الكتب العربية والمصاحف المخطوطة في ميادين غرناطة . ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للعرب كما أباد جميع المخطوطات العربية التى حفظت في خزائن كتب الأسكوريال . قام العرب بنشر الحضارة فى اسبانيا قرونا طويلة ، ومن اسبانيا انتقلت الحضارة العربية إلى ممالك أوروبا ، فكان جزاء العرب يوم ضعفت سياستهم ، أن يقتلوا شرّ قتله ، وتباد آثارهم كل إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته اسبانيا من العرب ، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت

صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت اسبانيا بعد مدّة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . فيقول ستانلي لانبول : إن فضل مسلمي الأندلس يتجلى في ههجيّة الاسبان وتأخرهم بعد أن خلت أرضهم من الإسلام . وقال لابرولا : لقد جعل العرب من اسبانيا جنة بديعة ، وكانت متأخرة جدا في زمن القوط ، وجعل العرب اسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوروبية ، ففضى الفتح الاسباني على عمل سبعة قرون قضتها اسبانيا في ظل حضارة العرب .

تحدث بارتولد في كتابه ( تاريخ الحضارة الإسلامية ) عن أثر سقوط الأندلس في القومية العربية ، فقال : ( وقد ظهر سقوط غرناطة في نظر المعاصرين ضربة أصابت العالم الإسلامي كله ، ولم يوجد من ينظر إليه من وجهة القومية العربية ) . أن الحادث الأخير الذي يمثل القومية العربية مع النهضة الدينية في تاريخ الإسلام في القرون الوسطى ، هو إعادة السلطنة الزمنية لخلفاء بغداد . إذ أن أهل بغداد اعتبروا هذا الحادث « نجاة العرب » لا « إعادة سلطنة الخلافة » . ولكن الخلفاء لم يجتهدوا في جمع البلاد التي يتكلم أهلها العربية بتوسيع سلطانهم ، وإنما أرادوا أن يعترف السلاطين بحقوقهم السامية باسم الإسلام . وأما فكرة تأسيس دولة عربية كبيرة فقد فقدت قوتها من قبل أن يهدم المغول الوثنيون عاصمة الخلفاء في سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) بزمن طويل . وسقوط بغداد ، كان كسقوط نينوى وبابل وروما ، لم يحدث تأثيرا كبيرا .

### ٣ — العثمانيون والقومية العربية :

نشأت الدولة العثمانية وترعرعت بعيدة عن البلاد العربية ، فلم تحتك بها ، ولم تشرع في الاستيلاء عليها إلا بعد أن مضى على تأسيسها نحو قرنين من الزمان ، وبعد أن تعاقب على عرشها ثمانية من السلاطين . فقد نشأت السلطنة العثمانية سنة ١٢٩٩ في مقاطعة صغيرة في شمال غرب آسيا الصغرى ، ثم بدأت في التوسع فشملت آسيا الصغرى كلها ، وعبرت الدردنيل إلى شمال بحر مرمره . أما السلطان سليم الذي استولى على الشام والحجاز ومصر فكان تاسع السلاطين ، والسلطان سليمان الذي أتم فتح سائر البلاد العربية كان السلطان العاشر .

قبل الفتح العثماني للعالم العربي كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبيرة :

الدولة العثمانية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الصفوية وعاصمتها تبريز ودولة المماليك وعاصمتها القاهرة . وكانت الدولة العثمانية تحكم بلادا واسعة في البلقان بأوروبا والأناضول . وكانت الدولة الصفوية تحكم شرق الأناضول والعراق وإيران ، أما دولة المماليك فكانت تحكم مصر وسوريا والحجاز .

كانت هناك جامعة إسلامية غير رسمية تجمع هذه الدول الإسلامية الثلاث :

العثمانية ، الصفوية ، المماليك . فكان التجار والحجاج ينتقلون بين أقطارها . كما كان السلاطين يتكاثبون باستمرار ، وكان السلاطين العثمانيون يحرصون

تماما على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الإسلامية ، وكما انتصروا على دولة مسيحية ، وكما فتحوا مدينة في البلاد الأوروبية كانوا يرسلون وفودا لإبلاغ ذلك إلى ملوك المسلمين . وكانت هذه المكاتبات تجرى باللغة العربية . ونذكر خطابا منها على سبيل المثال ، فقد كان سلطان المماليك في مصر قد تقدم بشكوى إلى السلطان العثماني من تعرض بعض أهل جنوه للتجار المسلمين ، وأجاب السلطان العثماني بأنه سيتوسط عند أمير جنوه لمنع الاعتداء . وقد اعتبر المملكان أن المملكتين ( كروحين في جسد ، وساعدين في عضد ) . وحفظ لنا التاريخ خطابا من السلطان العثماني السادس مراد الثاني إلى عزيز مصر الملك الأشرف برسباي ( ٨٣١ هـ - ١٤٢٧ م ) يبشره بفتح قلعة قرب نهر الدانوب . كما كتب السلطان مراد الثاني إلى عزيز مصر عند فتح سلانيك . وكتب السلطان محمد الثاني إلى عزيز مصر ( إينال شاه ) يبشره بفتح القسطنطينية ، كما كتب بذلك إلى شريف مكة يبشره بالفتح ، وطلب منه الدعاء ، وأرسل إليه بهدايا من الغنائم .

إن هذه الرسائل بين الحكام المسلمين تبين بوضوح تام « النزعة الدينية الشديدة » التي كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية وفتوحاتها ، كما تعطي فكرة واضحة عن اهتمام السلاطين العثمانيين بإذاعة أخبار انتصاراتهم على (الكفار) في مختلف الأقطار الإسلامية عامة ، والبلاد العربية خاصة . ولا شك أن هذا كان يكسب الدولة العثمانية مكانة معنوية رفيعة ، ولا شك أن هذه المكانة

المحتوية ساعدت مساعدة كبيرة على الفتح العثماني للبلاد العربية من جهة ،  
ودوام الحكم العثماني لهذه البلاد مدة طويلة و بدون عناء من جهة أخرى .

إن الفتح العثماني للعالم العربي - إجمالاً - كان سهلاً ميسوراً . وساعد  
على ذلك تلك الجامعة الإسلامية التي كانت تجمع الدول الإسلامية الثلاثة .  
العثمانية ، الصفوية ، المالكية . وهي في الحقيقة دول إسلامية وليست دولاً  
عربية . بل إن الدين لعب الدور الأول في الفتح العثماني للعالم العربي .

قامت الدولة الصفوية في إيران ( فارس ) على أساس ديني قومي . وقد  
وطّد الشاه اسماعيل صفوي ( ١٥٠٠ - ١٥٢٤ م ) المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ،  
العزم على أن يقيم في إيران دولة قومية مستقلة يدين أهلها بالتشيع ، ثم يعمل  
على أن يصبح هذا المذهب هو الغالب في العالم الإسلامي . وابتدأ الشاه  
اسماعيل بالعراق فاستطاع فتح بغداد سنة ١٥٠٨ م ، وبدأ في نشر مذهب  
الشيعة بالقوة ، فاستصرخ العراقيون القوي الإسلامية الأخرى لإنقاذهم من  
عسف الصفويين .

أما العثمانيون فقد كانوا قد أقاموا دولتهم في الأناضول والبلقان على  
أنقاض الإمارات التركية وأملاك الدولة البيزنطية . وظل العثمانيون حتى أوائل  
القرن ١٦ متجهين إلى الفتح والتوسع في البلقان في طريقهم إلى وسط أوروبا ،  
أما في الشرق فلم يكن لهم أي مطمع إلا في تأمين حدودهم الممتدة على مشارف  
إيران والعراق والشام ، حتى تولى الشاه اسماعيل الصفوي وبدأ في نشر التشيع

خارج إيران ، فبدأ اهتمام العثمانيين بالعالم العربي والإسلامي ، فبدأ اصطدامهم بالدولة الإيرانية الصفوية ، ثم استيلاء العثمانيين على العالم العربي .

هزم السلطان سليم الأول الإيرانيين في موقعة چالديران سنة ١٥١٤ ، ودخل عاصمتهم تبريز ، ولكنه آثر الانسحاب لأنه خاف أن يقع بين عدوين ، الصفويين في الشرق ، والمماليك في الشام ومصر من الغرب . كما كانت خطوط المواصلات طويلة والشتاء على الأبواب ، ولذا آثر سليم الانسحاب ورأى أن يبدأ بالقضاء على دولة المماليك ثم يتفرغ للقضاء على الدولة الصفوية . وكان هناك سبب آخر شجع السلطان سليم على القضاء على دولة المماليك ، وبيّن هذا العامل الشعور بالجامعة الإسلامية بوضوح . فقد كانت دولة المماليك الإسلامية في صراع عنيف مع دولة البرتغال المسيحية . وبدأ الصراع منذ أن حوّل البرتغال التجارة من الطريق المار بمصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وكانت مصر أكثر الدول إفادة من طرق التجارة القديمة ولذا كان أشدها تأثراً بالتحول التجاري الجديد الذي اتخذ لونا صليبيًا صارخًا حين عمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية في الهند ، وسعوا إلى النفوذ إلى البحر الأحمر للنزول في الحجاز وتحطيم الأماكن المقدسة الإسلامية ، بالتحالف مع دولة الحبشة المسيحية ، ونهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين في البحار الشرقية ، فأنفذوا الأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبعثوا بالجيوش لفتح اليمن تأمينًا لها من الخطر البرتغالي . ولكن جهود مصر لم تقدر لها

النجاح ، ووطد البرتغاليون أقدامهم في قواعدهم الحصينة وأمعنوا في احتكار التجارة الشرقية والضغط على القوى الإسلامية والعربية في البحار الشرقية .

لاشك أن هذا الخطر البرتغالي ، وتهديدهم الأماكن المقدسة في الحجاز كان يثير غضب ومخاوف السلطان العثماني سليم الأول بصفته رجلاً مسالماً ، وسلطان أقوى دولة إسلامية وقتئذ . وشعر سليم أن دولة المماليك قد أصبحت في حالة من الضعف الشديد مما لا يسمح لها بصد البرتغال ، ولذا رأى أن يقضى على هذه الدولة التي لا تصلح للبقاء ثم يتولى هو تخليص العالم الإسلامي من خطر تحالف دولتي البرتغال والحبشة المسيحية .

هزم السلطان العثماني سليم الأول السلطان المملوكي قنصوه الغوري في موقعة ( مرج دابق ) شمالى حلب سنة ١٥١٦ ، واستولى على بلاد الشام جميعها ، ثم دخل القاهرة سنة ١٥١٧ ، وأصبحت مصر بعد الشام ولايتين عثمانيتين ، وانتقلت الخلافة الإسلامية إلى آل عثمان . وبدأ العثمانيون يعملون على التخلص من خطر البرتغاليين ، واقتضى هذا أن يبسط العثمانيون سلطانهم في البحر الأحمر بجانبه الأسيوي بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الإفريقي بضم الإمارات العربية في سواكن ومصوع وهررت تحت سلطانها ومحاولة إخضاع الحبشة . ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية تخرج لمقاتلة البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج الفارسي لفك الحصار الذي ضربه البرتغاليون على التجارة العرب والمسلمين في تلك الأصقاع .

خضعت بلاد الحجاز للعثمانيين سلمياً دون حرب أو قتال ، ولا شك أن (الجامعة الإسلامية) كانت الدافع الأول . فقد كان أشرف مكة يخضعون لدولة المماليك الإسلامية ، وما أن أدركوا أن هذه الدولة قد زالت من الوجود حتى أرسل شريف مكة ابنه إلى السلطان سليم بالقاهرة يحمل إليه مفاتيح الكعبة وأعلن الدخول في طاعته ، فقبل سليم ولاءه وثبته على إمارته .

أما اليمن فقد كانت أشدّ البلاد العربية والإسلامية مقاومة للحكم العثماني ، رغم أن اليمنيين كانوا من أكثر العرب مقاساة من الضغط البرتغالي الذي كان جائماً بالقرب منهم عند مدخل البحر الأحمر ، وقد حاول البرتغاليون أكثر من مرة انتزاع عدن ، الثغر اليمني الحصين . ولعب اختلاف المذهب الديني الدور الأول في هذه المقاومة . فقد كان الحكم في اليمن للأئمة الزيديين وهم من الشيعة ، بينما العثمانيون سنيون متعصبون .

وفي عهد السلطان سليمان القانوني تمّ فتح اليمن ، والعراق ، وعبدن ، وانتزع مسقط من البرتغاليين ، ونفذ العثمانيون إلى الخليج الفارسي حتى وصلوا إلى البصرة ، وسيطروا على الإمارات العربية على الخليج الفارسي كعمان والإحساء والبحرين والكويت .

وكان فتح العثمانيين لبلاد المغرب خير دليل على شعور أهل المغرب بالجامعة الإسلامية ، فقد سقطت دولة الموحدين (١٢٦١) وكانت تحكم بلاد المغرب كلها وتجمع عرب المغرب جميعاً في وحدة سياسية واقتصادية واحدة . وعلى

أنقاض دولة الموحدين قامت دويلات صغيرة ، وبدأ الانقسام والتمتازع ، وطمعت فيها الدول المسيحية المواجهة لهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط كجنوة والبندقية ومالطة والامارات المسيحية في الأندلس التي كانت تزحف على مابقي للمسلمين من ملك في شبه الجزيرة . وبسقوط غرناطة انتهى ملك المسلمين في الأندلس ، وحمل الأسبان تلك الحرب الصليبية إلى شمال إفريقيا . وعجزت الامارات العربية المغربية عن الصمود للأسبان ، فلبجأوا إلى أكبر قوة إسلامية ، وهي قوة السلاطين العثمانيين ، وباسم الإسلام ونصرة الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب في شمال إفريقيا في كفاحهم ضد الأسبان ، وتقاضوا ثمن تلك المساعدة ، فكان دخول بلاد المغرب العربي في حوزة السلطنة العثمانية .

تم دخول الجزائر في حوزة الدولة العثمانية في سهولة ويسر . فقد ضاق أهل الجزائر بضغط الأسبان ، فلبجأوا إلى قرصانين مسلمين أخوين ليحموهم من الأسبان ، هما ( عروج ) و ( خير الدين ) . ونجح الأخوان فكوفئتا بتولية عروج أميراً على الجزائر ، حتى إذا مات خلفه أخوه خير الدين بارباروس . ورأى خير الدين أن الامارات المغربية عاجزة عن الصمود للخطر الأسباني ، وأن الدولة العثمانية أقدر على القيام بهذا العمل ، فزار الأستانة وأعلن دخوله في طاعة السلطان العثماني . واتخذ العثمانيون من الجزائر قاعدة لفتح تونس والقضاء على الدولة الحفصية .

كان فرسان القديس يوحنا في مالطة من ألد أعداء الإسلام والمسلمين منذ تألفت جمعيتهم في الأراضى المقدسة أثناء الحروب الصليبية . وكانوا من معقلهم بمالطة يشنون حربا لاهوادة فيها ضد سفن المسلمين وثورهم . وطمعوا في فتح طرابلس ، واستنجد أهل طرابلس بالدولة العثمانية باعتبارها حامية المسلمين ، ولجى العثمانيون النداء فخلصوا طرابلس من أيدي فرسان القديس يوحنا .

لاشك أن كون الأتراك مسلمين كان العامل الأكبر في قبول العرب للحكم التركى ، وعلى الأخص إذا علمنا أن عقلية القرون الوسطى التى كانت تعتبر الإنسان فردا من جماعة دينية أولا ومواطنا فى هذا القطر أو ذاك ثانيا ، كانت ماتزال سائدة آنذاك . وكانت القومية والولاء القومى ، بمفهومهما العصريين غير معروفين البتة . وعلى هذا كان أبناء « الرعايا » هم الوحيدون الذين كانوا يحاولون الانفصال عن الحكم العثمانى ، ويشعرون دائما بأن هذا الحكم العثمانى إنما هو حكم أجنبى دخيل . وكانت أغلبية هؤلاء « الرعايا » تسكن الأقسام الأوروبية من الامبراطورية العثمانية .

وبالرغم من أن سيادة الترك العثمانيين فى البلاد العربية كانت طويلة الأمد أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يتركوا عربيا واحدا فى أثناء حكمهم الطويل . لقد استعمروا البلاد العربية سياسيا ، ويمكننا أن ندرك ماهية الاستعمار التركى إذا قارناه بالاستعمار الفرنسى فى الجزائر مثلا ، حيث بدأ الفرنسيون الإذابة والإفناء منذ أكثر من مائة سنة .

انبرى الدكتور وليد قحايى فى كتابه ( النكبة والبناء ) إلى الدفاع عن العثمانيين ، فقد برأهم تماما من ( جريمة قتل الوطن العربى ) إذ أنهم لم يفعلوا أكثر من أن يضموا إلى دولتهم أشلاء ممزقة ، محاولين توحيدها فى ظل الخلافة العثمانية الإسلامية . وهذه الأشلاء هى دولة الموحدين العربية فى المغرب التى انحلت بسرعة عجيبة ، فأصبحت أجزاء مستقل بكل منها أمير محلى : فى تونس الحفصيون ، وفى الجزائر عدة حكام ، وفى مراكش بنومرين ، أما الأندلس فبعضها لبني الأحمر وبقيتها ممالك أسبانية قائمة منذ جعل العرب أسبانيا أندلسا . أما حكام مصر قبيل الفتح العثمانى فقد كانوا خليطا عجيبا من الترك والمغول والعبيد الذين كان الأيوبيون يشترونهم ويربونهم ويسلمونهم زمام الجيش والسلطة .

بل إن الدكتور وليد يذهب إلى أنه لا ينبغى اتهام الأسبان والمماليك والمغول بأنهم السبب فى ( إزهاق روح الوطن العربى وتمزيق أوصاله ) وذلك لأنه كان مزقا متناثرة . ويرى أنه يجب علينا أن لاتهم العثمانيين بالعدوان على هذه المزق ، لأن كل فريق منهم يحمل فى يمينه بطساقة دعوة تلقاها من أحد حكام الوطن العربى ، ترجوه تشرىف البلاد والمشاركة فى تناول بعض ماعلى موائد الوطن العربى الذبيح ، وكل ما هنالك أنهم كانوا عظيمى الطمع ، فاستولوا على جميع ماعلى الموائد ، ولم يتركوا لمضيفيهم شيئا .

## السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية

تذهب الغالبية العظمى من كتب التاريخ إلى تنازل آخر الخلفاء العباسيين في مصر ، المتوكل على الله ، عن الخلافة إلى السلطان العثماني سليم الأول ، فاتح الشام ومصر ، وبهذه الصورة انتقلت الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى العثمانيين . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا التنازل تم في القاهرة ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه قد تم في القسطنطينية .

ولكننا نستطيع أن نؤكد أن هذه الرواية ماهي إلا أسطورة تكونت بعد فتح مصر ، وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير قصيرة . والأدلة على ذلك كثيرة :

١ - إن المؤرخ ابن إياس كان معاصرا لاستيلاء العثمانيين على مصر . فقد دون في تاريخه ( بدائع الزهور ) كثيرا من الوقائع والأمر ، بتفاصيل وافية ولم يذكر شيئا عن أمر الخلافة . وهو يسمى المتوكل دائما بالخليفة ، ويسمى سليم أو سليمان باسم السلطان ، ولا يشير ولو إشارة عابرة إلى تبدل أمر من أمور الخلافة .

ب - لا يوجد تاريخ تركي كتب في عهد السلطان سليم إلا أن منشئات فريدون بك تضم نوعا من ( اليوميات ) التي تسجل مافعله السلطان سليم منذ مغادرته القسطنطينية لفتح مصر ، حتى عودته بعد الفتح إلى عاصمة ملكه . في هذه اليوميات لا توجد كلمة واحدة عن قضية الخلافة . رغم أن هذه اليوميات لم

ترك كبيرة أو صغيرة إلا أحصتها ، فهي تذكر المساجد التي صلى فيها سليم صلاة الجمعة ، والأشخاص الذين أنعم عليهم ، والذين أمر بقتلهم ، وأنواع الطعام التي قدمت في مادبه .

ح - أن أقرب التواريخ العثمانية إلى عهد السلطان سليم هو المعروف باسم (تاج التواريخ) . إن هذا التاريخ يحتوى بحثاً طويلاً عن السلطان سليم ، ومع هذا لا يذكر شيئاً عن الخلافة . ومما يلفت النظر أن كاتب (تاج التواريخ) كان ابن شيخ الإسلام الذي رافق السلطان سليم خلال سفره إلى مصر . وقد دون عدة وقائع وأمور نقلها عن والده . فلو كان حدث تبدل ما في أمر الخلافة ، خلال وجود السلطان سليم في مصر ، أو بعد عودته إلى القسطنطينية ، لذكر ذلك بكل اهتمام .

إن السلطان سليم لم يهتم بالخلافة ، ولاغرابة في ذلك فقد كانت الخلافة في ذلك العهد قد فقدت مكانتها منذ فترة طويلة . وكان الخليفة قد أصبح (مقام تبرك) لا يتمتع بأية سلطة فعلية أو اسمية اللهم إلا أنه كان يدخل في التشريعات مع القضاة الأربعة ، ويتولى مقام الخلافة بأمر يصدره السلطان المملوكي بعد مشاوراة العلماء والقضاة . حتى إنه كان يقصى عن منصبه أيضاً بأمر من السلطان في بعض الأحيان .

إن السلاطين العثمانيين لم يعيروا - في بادئ الأمر - أمر الخلافة أى اهتمام . وعندما اهتموا بها فيما بعد وأرادوا أن يستفيدوا منها ، اختلقوا ساستهم ومؤرخوهم أسطورة التنازل .

ولا شك في أن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها للبلاد العربية والبلاد الإسلامية تسهيلا كبيرا . ولإظهار قوة هذا التأثير المعنوي ، ننقل ما كتبه الزعيم الوطني المصري ( محمد فريد ) في كتابه ( تاريخ الدولة العلية العثمانية ) عند حديثه عن قتل السلطان عثمان الثانى : « فأعدموا السلطان عثمان غير مبالين بهذا الجرم العظيم ، والإثم الذى مابعده إثم إلا الكفر المبين . فإنه إن كانت مخالفة أوامر الخليفة الأعظم تعد كفرا بنص الكتاب الشريف فما بالك بمقتله . وهنا يقف القلم ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء ، تاركا وصفها للقارئ اللبيب والمطلع الأديب لعجزى عن هذا المقام العالى . . . » .

إن فكرة الخلافة العثمانية ساعدت على استسلام العرب والمسلمين للحكم العثمانى ، وعززت هذه الفكرة ( الجامعة الإسلامية ) وأدت إلى تأخير نشوء فكرة ( القومية العربية ) .

### القومية العربية تقاوم الحكم العثمانى :

منذ القرن التاسع عشر أخذت فكرة القومية تظهر للوجود بشكلها الواضح ، أولا فى أوروبا ، ثم فى الأقسام الأوروبية من الامبراطورية العثمانية . أما المناطق العربية التى كانت خاضعة للحكم العثمانى فقد استجابت لهذه الفكرة الجديدة استجابة ضعيفة بادى ذى بدء ، ثم استجابة متعددة الأشكال ،

متفاوتة الدرجات فيما بعد . وكان أول من بشر برسالة القومية بين العرب هم أبناء « الرعايا » أى المسيحيين الذين وجدوا فى القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل وللخروج من حدود الدائرة الإسلامية إلى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذنبوا أنفسهم فى ولاء شامل .

لاشك أن مفاصد الحكم التركى العثمانى فى البلاد العربية كان دافعا للعرب المسلمين إلى الابتعاد رويدا رويدا عن ( الجامعة الإسلامية ) والخضوع للدولة العثمانية الإسلامية ، والاقتراب تدريجيا من قوميتهم العربية .

رأينا حكاما مسلمين لم يحدوا حرجا فى عصيان الدولة العثمانية الإسلامية ، والتحالف مع دول مسيحية . فى أوائل القرن السابع عشر ثار الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى لبنان على الحكم العثمانى واستعان بإمارات مسيحية ، مثل توسكانا ونابلى وأسبانيا والبابوية لتعينه على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهى دول كانت الروح الصليبية لاتزال مسيطرة على علاقاتها بدول المسلمين فعزمت الدولة العثمانية على القضاء عليه ، ففر لاجئا إلى حليفه أمير توسكانا . ونجحت الدولة العثمانية فى قتله سنة ١٦٣٥ ، ولكن اللبنانيين مازالوا يعتبرون فخر الدين بطلا قوميا كبيرا ، إذ دافع عن كيان لبنان واستقلاله ، وسعى لدعم هذا الاستقلال بالاتصال ببعض الدول الأوروبية واقتباس بعض مظاهر الحضارة الأوروبية فى بلاده .

وفي مصر ، ثار ( على بك الكبير ) شيخ البلد المسلم على الحكم العثماني ، وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر أمير عكا من قبل العثمانيين وأعلنوا العصيان ، ولم يجدوا حرجا في التحالف مع روسيا وهي دولة مسيحية . وفي العراق اعتمد داود باشا على الإنجليز في توطيد دعائم حكمه والثورة على العثمانيين ( ١٨١٧ - ١٨٣١ ) .

كانت حملة نابليون بونابرت على مصر والشام من عوامل ضعف (الجامعة الإسلامية العثمانية ) وظهور ( القومية العربية ) . قدم الفرنسيون مُزودين بمدنيتهم الحديثة التي تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادئ الديمقراطية . وتقابلوا بهذا كله مع مدينة الأتراك فكانت الغلبة للمدينة الحديثة . ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية هذه المدينة وأيقنوا أنه لاهياة لشعوب الشرق العربي إلا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقاوم الغرب بأساليبه .

كان العالم العربي قد فقد إلى حد كبير شعوره بالقومية العربية في ظل الحكم التركي ، وذلك لغلبة الشعور بالقومية الإسلامية العربية ، فقد كان العرب جزءا لا يتجزأ من دار الخلافة الإسلامية ، وخالطوا - نتيجة تفتش الجهل فيهم - بين الإسلام والخلافة ، وبين الخلافة والسلطنة العثمانية . حتى أصبحت صلة كل قطر عربي بأشقائه من الأقطار العربية الأخيرة أضعف بكثير من صلته بتركيا .

كانت الحملة الفرنسية أول مشروع رمى إلى تكوين دولة شرقية

من الأجزاء العربية التابعة لتركيا ، وقد استغل بونايرت مقومات العروبة ، فلبجأ إلى اللغة العربية في كتابة منشوراته ولوائحه . وطبع كتبها في تعليم اللغة العربية وهجائها بالمطابع الفرنسية المرافقة للحملة ، وشجع العناصر العربية في البلاد فكون منها دواوينه وجعلهم أهل مشورته .

بعد الفتح العثماني للدول العربية والإسلامية ، استأثر الأتراك بالحكم ، ولم يكتفوا بعدم اشتراك الشعوب العربية في حكم بلادها ، بل إنهم أقصوا العرب عن مناصب الحكومة إطلاقاً إذ كانت نظرية الحكم التركي أن هناك طبقتين متميزتين : طبقة الحكام الأتراك ، وطبقة المحكومين أو الفلاحين . ثم جاء نابليون إلى مصر وأعلن فكرة اشتراك الشعب في الحكومة ، فجاء في منشوره الذي أصدره في الاسكندرية في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ : ( ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا يأس أحد من أهالي مصر في الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور وبذلك تصلح حال الأمة كلها ) .

أنشأ نابليون ديوان القاهرة من العلماء وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة ، كما أنشأ دواوين الأقاليم . ولم يتنازل الشعب عن هذا بعد خروج الفرنسيين ، فأخذ يتدخل في الحوادث وقاوم الولاة الظالمين وعزلهم ، وولى زعماء الشعب محمد علي بشروط خاصة ، ووقف السيد عمر مكرم في وجه استبداد محمد علي .

أيقظ نابليون الشعور القومي العربي ، وبعث فكرة استقلال العرب عن العثمانيين . كانت الشعوب العربية تقاوم الحكام العثمانيين عندما يستفحل ظلمهم ، ولكنها كانت مقاومة منسوبة على حوادث فردية ولم تكن ثورة قومية ترمى إلى التخلص من الحكم العثماني . ولعل السبب في ذلك هو أن الشعوب العربية كانت معترفة بحق السلطان بصفته خليفة للمسلمين في حكم البلاد فلم تكن تنازع في ذلك .

فلما قدم الفرنسيون فاتحين غازين ، وكانوا مختلفين عن أهل البلاد في الدين والجنس واللغة ، ثارت الروح القومية وشعر المصريون لأول مرة في العصر الحديث أن كرامتهم القومية قد مسّت ، فاستبسّلوا في الدفاع عن الوطن العربي . وكان هذا فاتحة الحركات القومية طوال القرنين ١٩ و ٢٠ .

وكما ظهرت فكرة إجلاء الفرنسيين ظهرت فكرة الاستقلال حتى عن تركيا ، فتكون وفد مصر بزعامة المعلم يعقوب حنا ، وغادر البلاد للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية . ورغم أن المعلم يعقوب نفسه كان ممن مالأ الفرنسيين وكون الفرق التي تعمل بزعامته تحت إمرتهم ، إلا أنه وضع مشروعا للاستقلال عن تركيا ، وهي فكرة جديدة تستحق التسجيل .

من أشد الحركات العربية التي قامت في وجه الحكم العثماني الحركة الوهابية ، وهي حركة عربية لحاودما ، وقد قامت في وسط البلاد العربية وفي قلب الجزيرة العربية ، وقادها قواد من صميم العرب . وإن كان الكتاب

والمؤرخون يصورونها دائماً بأنها حركة دينية مذهبية . لقد أراد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب أن يحارب الدولة العثمانية فحاربها بسلاح ذلك العصر وهو الدين ، فاتهم الحكم العثماني بأنه المسئول الأول عن انتشار البدع في العالم الإسلامي ، ودعا إلى العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى . ورأى محمد بن عبد الوهاب الزعيم الوطني أن يدعم دعوته بالتحالف مع زعيم سياسي هو محمد بن سعود حاكم الدرعية ( ١١٥٧ هـ - ١٧٤٤ م ) .

شعرت الدولة العثمانية بخطر هذه الدعوة الوهابية ، وخاصة أنها كانت تهدد انتظام الحج ، وكان السلطان يحرص دائماً على أن يسمى نفسه ( خليفة المسلمين ) و ( خادم الحرمين ) ، ولذا عهد إلى سليمان باشا الكبير والى العراق بإخضاع الوهابيين ، حتى إذا فشل عهد بذلك إلى محمد علي والى مصر ، فاستطاع ابنه إبراهيم أن يقضى على الدولة السعودية الأولى .

أثبتت الدعوة الوهابية قدرتها على أن تكون خلية يلتف حولها ملكٌ عربي وطني . فقد قامت الدولة السعودية الأولى وانتشرت بفضل اعتناق أميرها الدعوة الوهابية وسعيه لنشرها في الجزيرة العربية ، ثم قامت الدولة السعودية الثانية - بعد انتهاء الحكم المصري في الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠ - معتمدة على الدعوة الوهابية ، ثم قام عبد العزيز آل سعود بتأسيس الدولة السعودية الثالثة في أوائل القرن العشرين على أساس هذه الدعوة .

ولكن كيللر - الكاتب الفرنسي - في كتابه ( القضية العربية في نظر الغرب )

يرى أن الحركة الوهابية لا تؤدي إلى الوحدة العربية ، فيقول : تأسست الوهابية في القرن الثاني عشر على يد محمد بن عبد الوهاب وأخذت اسمه . ودعوة محمد بن الوهاب هذه تتلخص بأنه يريد ثورة جديدة في الإسلام ، هدفها السير على تعاليم وعقيدة النبي الأساسية ، فحظر التبغ والقهوة والميسر والخمر والغناء . وهو فضلا عن ذلك عدو لدود للأجانب ، ولذلك فالوهابية ، بقوانينها الضيقة وقسوتها ، تشكل حاجزا قويا في وجه الوحدة العربية .

### ٣ - سياسة محمد على العربية

طمع محمد على ، معتمدا على ابنه إبراهيم ، في إنشاء دولة عربية أو امبراطورية عربية قوية نواتها مصر وتجمع سائر الأقطار العربية المجاورة ، وشجع محمد على على المضي في سياسته ضهف الدولة العثمانية .

جاء محمد على إلى مصر من مسقط رأسه في قولة كضابط في القوة الألبانية التي بعث بها السلطان العثماني في سنة ١٧٩٩ للقضاء على حملة نابليون بونابرت وكان آنئذ شايبا في الثلاثين من عمره . وقد تغلب نابليون بسهولة على هؤلاء الألبانيين ، إلا أن الهزيمة نفسها أفسحت المجال أمام محمد على للظهور فتولى قيادة القوة ، حتى إذا ماجلا الفرنسيون عن مصر بعد سنتين وجد نفسه على رأس جيش صغير وفي مركز ذي نفوذ وسلطة فسخر ذلك لصالحه ، وأخيرا وفي عام ١٨٠٥ استطاع أن يجعل الشعب المصري يبايعه حاكما على مصر .

بدأ محمد على سياسة عربية بعد أن استقر الأمر له في مصر . وتنفيذا لهذه السياسة لبى محمد على نداء السلطان للقضاء على الوهابيين بالحجاز . استمرت هذه الحروب سبع سنين وانتهت بانتصار محمد على الذي نجح في تحرير الأماكن المقدسة ، وبدأ محمد على في بسط نفوذه في أنحاء الجزيرة العربية . فوصلت جيوشه إلى اليمن جنوبا وإلى الخليج الفارسي شرقا . وكوفىء محمد على من السلطان بتعيين ابنه إبراهيم واليا على الحجاز .

لمع اسم محمد على في العالم العربي وعظمت مكانته بسبب هذه الانتصارات. وكان لهذه الحملة في الوقت ذاته نتيجة خطيرة ، وهي أنها أتاحت لمحمد على وولده إبراهيم فرصة للاتصال المباشر بالعالم العربي وإدراك القابلية الكامنة فيه ، وهذا ما جعلهما ، وهما عنصر غريب تماما عن العرب ، يلمان بإنشاء امبراطورية عربية ويطمحان أن يتم تشييدها على أيديهما . ثم بدأ محمد على في فتح السودان ، وكان معظم سكان شمال السودان عربا مسلمين . ويهت بحملات بحرية إلى البحر الأحمر حيث قضت على القرصنة ، وأخضعت ساحليه العربى والإفريقى لحكمه .

ثم دعاه السلطان لمساعدته في حرب المورة لإخماد ثورة اليونانيين فلبى النداء آملا أن يكافئه السلطان بمنحه حكم الشام فيضمها إلى الدولة العربية المتحدة ، ولكنه كوفىء بجزيرة كريت ، وهى جزيرة صخرية فقيرة الموارد ، فخابت آمال محمد على وعول على أن يستولى على بلاد الشام بالقوة معتمدا على قوة ابنه إبراهيم .

تم لإبراهيم فتح بلاد الشام بسهولة كبيرة بعد سقوط عكا ( مارس سنة ١٨٣٢ ) ، فقد احتل دمشق ، وهزم الجيش العثمانى قرب حمص ثم هزمهم فى حلب ، وفى نهاية يوليو تم له الاستيلاء على بلاد الشام جميعها . وأعلن إبراهيم أن جيوشه لن تقف فى زحفها إلا عند الحد الفاصل بين المتكلمين بالتركية وبين المتكلمين بالعربية ، وجهر بأنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء فى الإدارة أم فى الجيش

وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ، ولذا رحب أهل الشام بالفتح المصري  
ترحيبا كبيرا .

كان إبراهيم أكثر من محمد على إيمانا بالعرب وتحمسا للقومية العربية ،  
فقد نشأ في مصر وعاش فترة في شبه الجزيرة العربية ، وكان يقول : ( أنالست  
تركيا ، بل أنا مصري عربي ، فلقد جئت مصر صبييا ، ومنذ ذلك الحين  
مصرتني شمسها ، وغيرت من دمي ، وجعلته دما عربيا ) . وسئل إبراهيم أثناء  
حصاره عكا : إلى أي مدى تصل فتوحاتك إذا تم لك فتح عكا ؟ فقال : إلى  
مدى ما يتكلم الناس وأنفاهم وإياهم باللسان العربي .

تدخلت الدول الأوروبية فضغطت على محمد على حتى عقد اتفاقا في  
ربيع ١٨٣٣ اعترف فيه السلطان بمحمد على حاكما على بلاد الشام اعترافا رسميا .  
وفي خلال السنوات التي أعقبت ذلك ، حكم إبراهيم تلك البلاد باسم أبيه إلى  
أن أرغمه ضغط الدول الغربية من جهة وتدمير بعض السكان من جهة أخرى  
على اخلائها والتنازل عن ولايتها ، وذلك في سنة ١٨٤٠ .

كان محمد على يحلم بإنشاء دولة عربية كبرى منذ عدة سنوات ، وأصبح  
الحلم حقيقة بعد فتح الشام ، فقد أصبح يسيطر على أهم أجزاء العالم العربي ،  
فكون دولة تضم مكة والمدينة والقاهرة وبيت المقدس ودمشق ، وبدأ يحلم  
بضم الأجزاء العربية الباقية . بل يذهب جورج أنطون نيوس في كتابه  
( يقظة العرب ) إلى أن محمد على كان ينوي بالإضافة إلى ذلك السعي للاستيلاء

على الخلافة الإسلامية نفسها ولم يخف هذه النية ، فقد كان يعلم أن فرنسا تحبذ قيام مملكة مستقلة ومستقرة تضم بلادا كبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية واقمة على الطرق الكبرى المؤدية إلى الشرق أو بمعنى آخر على طرق بريطانيا تؤدي إلى الهند . كما أن النمسا شجعت في مساعيه إذ أو فدت ( الكونت بروكش أوستن ) الذي قدم مذكرة في ١٧ مارس ١٨٣٣ رسم فيها الخطوط الكبرى للمشروع الذي يقترحة ، ويتلخص هذا المشروع في أن يتولى محمد علي الخلافة وينشئ دولة عربية تضم مصر والسودان والجزيرة العربية والشام والعراق . وفهم محمد علي من هذا الاقتراح أن الحكومة النمساوية تؤيده . وعلى كل حال ، فقد كان في الفكرة نفسها ما يغري باعتناقها . فقد كان محمد علي يسيطر على البلاد المقدسة وكان شريف مكة يهابه أكثر من مهابته السلطان ، وكان السلطان مكروها عند رعاياه ، المسامين منهم والمسيحيين ، وكان الجيش العثماني ضعيفا إذا قارناه بالجيش المصري ومعنى ذلك أن التربة كانت صالحة في البلاد العربية لغرس الفكرة .

ظهرت عقبة كبرى في سبيل تحقق الفكرة العربية ، وهي معارضة اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا الذي عارض بعنف فكرة الدولة العربية . ورأى محمد علي أن يحمل أهل الشام على المناذاة بها جهرا . وكانت قد تسربت هذه الفكرة العربية إلى بلاد الشام فقبلها أهل الشام قبولا حسنا ، المسلمون منهم في ذلك كالمسيحيين أما المسلمون فقد كان الوهابيون قد أثاروا مشاعرهم وجعلوهم يحتقرون السلطان العثماني ، أما المسيحيون فقد كانوا يسمعون عن المعاملة

الطيبة التي يلقاها إخوانهم المسيحيون في مصر . وكان الأمير بشير الشهابي أمير لبنان صديقا حميما ل محمد علي فاستطاع أن يمهّد العقول لقبول فكرة قيام امبراطوية عربية ، وطرده العثمانيين من الشام . واعتقد أهل الشام أن فتح محمد علي لبلادهم يؤدي إلى تحرير العرب من الحكم التركي العثماني .

تولى إبراهيم حكم الشام سنة ١٨٣٣ فبدأ ينشر أفكاره في بعث النهضة العربية . وكانت جهود محمد علي وابنه نخلق حركة عربية تتطلب تدليل عقبات كبيرة . فلم يكونا عربيين ، ولم يتقنا العربية ، وإن تحدث إبراهيم بها بشيء من الطلاقة ، ولذا فقدت دعوتهم القوة الذاتية . لقد كان الطموح الشخصي هو المحرك الأول لها وكانت رغبتهما في بعث الامبراطورية العربية ناشئة بالدرجة الأولى عن رغبتهما في الحصول على امبراطورية ما .

لم يكن الوالد وولده مثقفين تماما في تصوير امبراطورية المستقبل ، فلأن اشتراكا في الرغبة الرامية إلى تكوين مملكة موحدة تضم المناطق العربية التي تم لها الاستيلاء عليها وأن يصبحاها الاثنان ومن يأتي بعدها من سلالتهم البيت الحاكم فيها ويتخذ أيضا لقب الخلافة إلاّ أنهما كانا مختلفين في تقدير أهلية العرب ومبلغ المؤازرة المنتظرة منهم . أما محمد علي فقد كان هدفه الاستيلاء الجرد ، فهو حين وطن نفسه على الوصول إلى الخلافة وأن يتولى حكم مملكة مستقلة كان قانعا بأن لا مفر له لتحقيق هذين الغرضين من الاعتماد على نوايا العرب الحسنة نحوه ، والحصول على تأييدهم ، ولكنه لم يشعر نحوهم بعطف

حقيقي ، كما أنه لم يتكلم لغتهم . كان يتصور دعائم الحكم في امبراطوريته قائمة على سواعد أتباعه من الأتراك والألبانيين ولم يتصور العرب فيها إلا رعايا خاضعين له .

أما إبراهيم فكان هدفه أبعد من هدف أبيه ، فقد عمل على نهضة العرب حتى تصبح هذه النهضة أساسا قويا تقوم عليه الامبراطورية العربية المنشودة . وكان قد أتى إلى مصر شابا فنشأ في محيط عربي ، وعاش فترة في شبه الجزيرة العربية خبر فيها العرب . ويقارن جورج أنطونيوس في كتابه ( يقظة العرب ) بين الوالد وولده ، ويرى أن سبب اختلاف آرائهما هو اختلاف الفكر والمزاج ، فإن عبقرية محمد على كانت من النوع الذي يخلق الممالك ، بينما كان إبراهيم يتحلى بالحكمة التي تحتفظ بتلك الممالك .

نفذ إبراهيم سياسته العربية ، لقد كانت منشوراته التي يوجهها إلى الجيش تشير دائما إلى أمجاد العرب ، كما اهتم إبراهيم بالنواحي الاقتصادية والإدارية والتعليم والقانون حتى يرفع من شأن العرب من جهة ، وحتى يشعر أهل الشام بالفرق الشاسع بين الحكم المصري العادل والحكم العثماني الجائر .

ولكن سرعان ما انهار الحكم المصري في الشام نتيجة تدخل الدول الأوروبية التي أزعجها انتصارات المصريين الباهرة على العثمانيين وتقدمهم في آسيا الصغرى ، وكان كثير من الدول الأوروبية يرون أن من الخير لهم بقاء الدولة العثمانية الضعيفة ، كما عارضت فكرة إنشاء دولة عربية موحدة .

على حساب الدولة العثمانية . فقد كانت روسيا تخشى أن يتبع قيام هذه الدولة العربية امتداد أطماعها فيما بعد إلى سائر أجزاء الدولة العثمانية ، فيؤدي هذا إلى قيام دولة فنية على أنقاض الدولة العثمانية تحول دون تحقيق أطماعها في المضائق . أما إنجلترا فقد خافت من قيام قوة جديدة تسيطر على أهم الطرق الموصلة إلى الهند . وانفقت الدول على أن ترغم محمد عليّ على قبول حكم مصر وراثيا ، ونشرت الثورة في ربوع الشام ، ثم أوقعت الهزيمة بالجيش المصري ، وقبعت محمد علي وإبراهيم في مصر ، وضاعت آمالهما في إنشاء دولة عربية كبرى .

كانت هناك عدة عوامل أدت إلى فشل الفكرة العربية في عهد محمد علي وإبراهيم : أولها أن صاحبي فكرة إقامة الدولة العربية لم يكونا من العرب . وثانيها معارضة المرستون وزير خارجية بريطانيا ، فقد كتب بالمرستون إلى الوزير البريطاني المفوض في نابلي في ٢١ مارس ١٨٣٣ : « إن هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تشكل اللغة العربية . وقد لا يحوى هذا المشروع ضررا ما في حد ذاته ، ولكنه سيؤدي إلى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه . فضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر إحلال ملك عربي محل تركيا في السيطرة على طريق الهند » .

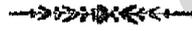
أما العامل الثالث فهو فقدان التضامن القومي في العالم العربي ، وعدم نمو الوعي العربي القومي والاجتماعي . ووقف التعصب الديني عقبة في سبيل اتحاد العرب ، وكان هذا التعصب واضحا في بلاد الشام ، إذ انقسم أهلها إلى طوائف

عدة ، وتمسكت كل طائفة بتقاليدها الخاصة الاجتماعية والدينية ، ولم تكن الوطنية بمعناها القومي معروفة آنئذ . كانت هذه الطوائف مشتركة في اللغة والعادات والعنصر ، متحدین في كرههم للحكم التركي ، راغبين في التخلص منه ، إلا أن أمانيتهم في الحرية كانت ناشئة عن دوافع مختلفة ، كما كان ترحيبهم بمقدم إبراهيم يستند إلى عوامل ذاتية ، أما المسلمون فقد رحّبوا بقيام امبراطورية عربية ، لا اعتقادهم بأن عودة الخلافة إلى العرب ستزيد في سيطرتهم . ورحب المسيحيون بقيامها لأن محمد علي كان متسامحا مع نصارى مصر فمّنّوا نفوسهم بأنهم سيتمتعون بهذه المساواة والتسامح إذا تمّ له فتح الشام .

عملت الحملة الفرنسية على نهضة الثقافة العربية ، ثم أكلت هذا العمل العظيم الجمعيات التبشيرية المسيحية . ونتج عن هذا كله اهتمام العرب بترأّسهم القومي ، ممّا أدّى إلى بعث القومية العربية . وساعد على بعث القومية العربية . وساعد على بعثها سوء الحكم العثماني الإسلامي ، وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد ( ١٨٧٦ - ١٩٠٨ ) وقد تميّز هذا العهد بالاستبداد وكبت الحريات .

وفي مصر ، في عهد الخديو إسماعيل ، تأسست ( الجمعية العلمية الشرقية ) من أعضاء من جميع البلاد العربية وكانت مهمتها البحث العلمي ، وإنارة أذهان أبناء العرب ، وكان الأدباء والشعراء سفراء بين الأقطار العربية ، مثل الشاعر المصري إبراهيم مرزوق ، والشاعر اللبناني إبراهيم اليازجي ، والكاتب السوري

أديب إسحق . كما كانت بعض الجمعيات الأدبية تعمل جادة في سبيل النهضة الأدبية العربية مثل (جمعية زهرة الآداب) التي تأسست في بيروت سنة ١٨٧٣ . كما كان للأزهر يد في الصلات الأدبية بين بني العروبة حيث هو مثاب اللغة والدين معا . ثم كان للروح القومي والعنصري الذي ظهر في أوروبا ، والاحتكاك المتجدد بين الشرق والغرب أثر عظيم في تنبيه الأفكار في مصر وجيرانها من الأقطار العربية إلى إحياء قوميتها .



## ٤ — الجامعة الإسلامية والقومية العربية

انهارت الدولة المصرية العربية التي كونها المصريون - على عهد محمد علي - في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بسبب مقاومة العثمانيين وإصرارهم على تقييد سلطة ولاية مصر . كما قضى العثمانيون على حكم المماليك في العراق (١٨٣١) ، وحطموا الأسرة القرامانية في طرابلس (١٨٣٥) .

رأى السلاطين العثمانيون أن يقروا قبضتهم على العالم العربي بحيث تظل الولايات العربية خاضعة للحكم العثماني إلى الأبد . واتبعوا في سبيل ذلك وسيلتين : الأولى الإصلاح ، والثانية الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

بدأت حركات الإصلاح في تركيا في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) واتجهت في أول الأمر نحو إصلاح الجيش بإدخال النظم الأوروبية الحربية الحديثة ، ولكن الانكشارية وقفت عقبة في سبيل الإصلاح وأرغموا السلطان على التنازل عن العرش . ثم تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء تماما على الانكشارية ، وكون جيشا قويا استطاع أن يقوم بأعمال حربية عظيمة في قتاله الوهابيين في نجد ، واليونانيين في المورة ، ثم قتال محمد علي . ثم أصدر خلفه وابنه السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) منشور (الكلخانة) وفيه يؤمن جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف قومياتهم

وأديانهم ، على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، ثم أصدر السلطان عبد العزيز (التنظيمات الخيرية) .

وخلاصة الإصلاح : تنظيم التعليم ، وإنشاء مدارس عالية ، وتنظيم القضاء ، وإنشاء محاكم تجارية ومختلطة ، وتنظيم شئون التجنيد ، وتنظيم ميزانية الدولة ، والشئون الإدارية ، وحددت اختصاصات الولاة وكبار الموظفين بحيث يرتبطون جميعا بالحكومة المركزية .

لكن حركات الإصلاح لم يكتب لها النجاح التام ، لعدم اقتناع السلاطين بها وحرصهم على الاحتفاظ بسلطتهم المطلقة ، بجانب العقبات التي وضعتها العناصر الرجعية كالعلماء وكبار الموظفين ، بجانب الصعوبات المالية ، واستمرار ثورات الشعوب المسيحية التابعة للدولة ، واشتداد الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية وولاياتها .

زادت أطماع الدول الأوروبية في الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الطوائف مما أضعف هيبة الدولة العثمانية ، مثل أطماع الفرنسيين في سوريا ولبنان وشمال إفريقيا ، والانجليز في مصر والسودان والعراق والخليج الفارسي والبحر الأحمر ، والألمان في استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والإيطاليين في ليبيا .

ماذا كان موقف العرب من الإصلاح ؟

رأى الأتراك أن الطريق إلى الإصلاح هو توطيد نفوذهم في الولايات العربية ، بينما كان العرب يرون أن الإصلاح هو إحياء الروح الوطنية وبعث الروح القومي والتنغني بأمجاد العرب وفضلهم على الإسلام ، وإحياء التراث العربي . كما رأوا أن يسخر الإصلاح لتحسين معيشة العرب والاهتمام بالأحوال الاقتصادية والقضاء على الفساد الإداري . وبدأت جمعيات عربية تطالب جهرا بالإصلاح ، وألصقت نشرات في دمشق مطالعها :

يادولة الترك اتركى عندك العناد وباشرى الإصلاحا  
وفي خلال حركات الإصلاح ، لم تتوقف الدول الأوروبية عن مدّ نفوذها في البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت المدارس الأجنبية تؤسس في المدن والقرى المسيحية فتجذب أبناء العرب غير المسلمين . وقد وجدت اللغة العربية موثلا في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين . وذلك لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية ، ولغة التعليم في هذه المدارس كانت اللغة التركية .

إن حركات الإصلاح المختلفة لم تغير تغيرا مذكورا مواقف كل من المسيحيين والمسلمين في البلاد العربية نحو الدولة العثمانية : ظل المسلمون يعتبرون

الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها لأنها دولة الخلافة الإسلامية . وظل المسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم ، لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوروبية ، لأنها تحميهم في كثير من المناسبات ، حتى إنها تقدم لهم بعض المساعدات . فكان على فكرة القومية العربية أن تتغلب على هذين الاتجاهين في وقت واحد. كان عليها أن تحول أنظار المسلمين عن الدولة العثمانية وأنظار المسيحيين عن الدول الأوروبية ، لسكى تجمع كلمتهم حول العروبة التي تستمد قوتها من اللغة والتاريخ .

حدثت في عام ١٨٦٠ حادثة خطيرة أنقذت الروح القومية العربية ففي ربيع هذه السنة ، قام الدرروز بهجوم على جماعات من النصارى في جنوب لبنان وقتلوا عددا كبيرا منهم ، ووقف الجنود الأتراك ، موقف المتفرج والواقع أن هذه الأحداث كان يشعلها الرعايا الأتراك نتيجة التعصب الديني الذي كان قد خلفه الاستعمار التركي وعمل على إزكائه بين الطوائف الدينية في مستعمراتها . وسرت موجة البغضاء إلى جهات أخرى ، ففي يوليو من نفس السنة هاجم مسلحو دمشق حى النصارى وذبحوا عددا منهم ، وبلغ عدد القتلى في لبنان ودمشق أحد عشر ألفا . واحتجت الدول الأوروبية ، وثارَت فرنسا وأرسلت حملة برية نزلت في بيروت ، وضغطت فرنسا على السلطان فأصدر فرمانا يجعل لبنان متصرفية مستقلة يحكمها عثمانى مسيحي

يعينه السلطان بموافقة الدول الأوروبية ويعاونه مجلس يمثل جميع الطوائف الدينية . هذه المذابح أيقظت العرب ، فأدركوا أنها وليدة التعصب الطائفي الذي يغذيه الجهل ، كما هبّ بعض زعماء العرب يدعون إلى تحرير الوطن العربي من الحكم التركي . وكان هؤلاء من تلاميذ اليازجي والبستاني ، وكانوا من أبناء الجيل الأول الذي نشأ على دراسة الثقافة العربية القديمة . وهكذا بذرت بذور الفكرة الوطنية فكانت ثمرتها حركة عربية وقومية ، لا طائفية .

خابت آمال العرب في حركات الإصلاح على الطريقة التركية ، مما أدى إلى توتر العلاقات بين العرب والأتراك . فرأى السلطان عبد الحميد أن يلجأ إلى طريقة جديدة تربط العرب بالأتراك ، ألا وهي ( الجامعة الإسلامية ) .

كانت الوحدة الإسلامية في ذلك الوقت ، وقبل ظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، تقوم على ركنين هامين : الحج إلى الأماكن المقدسة إلى الحجاز ، والخلافة الإسلامية . أما الحج فهو بمثابة مؤتمر إسلامي سنوي يضم المسلمين من جميع الأنحاء . أما الخلافة فقد كانت النواة التي تجمع المسلمين حولها ، ولكنها لم تعد قوية كما كانت أيام الأمويين والعباسيين ، ولكن السلاطين العثمانيين اعتبروا أنفسهم دائماً خلفاء المسلمين وخاصة في وقت ضعف الدولة العثمانية .

وفي منتصف القرن ١٩ تعرّض العالم العربي والإسلامي للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، واستولت روسيا على القوقاز ، وسيطرت إنجلترا على الهند ، وهولندة على أندونيسيا . وخاف المسلمون أن يسيطر الأوروبيون على العالم الإسلامي جميعه ، ولذا فكّر المسلمون في جمع كلمتهم للوقوف أمام التيار الأوروبي ، فنشأت فكرة الجامعة الإسلامية .

ساعد على ظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، ظهور السيد جمال الدين الأفغانى ( ١٨٣٩ - ١٨٩٧ ) فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس التي قامت عليها فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد انتقل بين الأقطار الإسلامية المختلفة وكانت تعاليمه سببا لاضطهاده .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى في كابل بأفغانستان ، وتلقى علومه بالهند ، وحين عاد إلى بلاده كان هناك صراع عنيف بين زعيم يؤيده الإنجليز يسمى شير على ، وزعيم وطنى يدعى محمد أعظم خان ، فوقف جمال الدين إلى جانب الزعيم الوطنى ولكن هذا الزعيم سرعان ما هزم فأثر جمال الدين النجاة فغادر بلاده إلى مصر حيث قام بالتدريس في الأزهر وتتماذ عليه كثير من تلاميذه الذين نادوا بتعاليمه فيما بعد . وأمضى في مصر ٨ سنوات بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ ولكنه سرعان ما أبعده عن مصر ، فغادرها إلى تركيا في وقت ظهرت فيه الحركة الدستورية فلعب دورا كبيرا في نشر المبادئ الدستورية ،

ولكنه أخرج من تركيا فعاد إلى مصر مرة أخرى في سنة ١٨٨٠ ، حيث كان له أثره في الحركة الفكرية التي ساعدت على قيام الثورة العربية ، وقد أوعز الإنجليز إلى الخديو توفيق بإبعاده فأخرج من مصر سنة ١٨٨٢ . وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين إلى أوروبا حيث زار لندن وباريس وبعض عواصم غرب أوروبا ، وفي ميونيخ بألمانيا تقابل مع شاه فارس ( ناصر الدين ) فدعاه إلى طهران حيث أكرم وفادته ، ولكن آراءه التحريرية أحنقت عليه الشاه فطرده من بلاده ، فسافر مرة أخرى إلى لندن . وفي سنة ١٨٩٢ دعاه السلطان عبد الحميد لينزل ضيفا عليه في الآستانة ، فقد أراد أن يتخذة رسول الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي رأى السلطان أن يستغلها لتحقيق سياسته في إحياء الخلافة العثمانية وجمع كلمة المسلمين حولها .

قامت دعوة جمال الدين الأفغانى على أساسين :

أولها : إصلاح حال المسلمين وتلقينهم المدنية الحديثة .

وثانيهما : تحرير الشرق من سيطرة الغرب ولقت أنظار المسلمين إلى ما وصلوا إليه من ضعف وتأخر نتيجة عدم مسايرتهم الحضارة والمدنية الحديثة حتى طمع الأجانب في بلادهم . ودعا جمال الدين المسلمين إلى الاتحاد ليقفوا في وجه الاستعمار .

وهكذا كان السيد جمال الدين يدعو إلى وحدة شرقية إسلامية عامة . تكفل

لأمم الشرق استقلالها وحريتها ، وخاصة أن الدولة العثمانية لم تعد قادرة على حماية ولاياتها الإسلامية من أطماع دول أوروبا .

رأى السلطان عبد الحميد ، الذي تولى الحكم سنة ١٨٧٦ ، أن يستفيد من ظهور فكرة إنشاء الجامعة الإسلامية . ففي الداخل قام بعض المصلحين بزعامة مدحت باشا يطالبون بالدستور . وفي الخارج كانت روسيا تهدد بالحرب تؤيدها بعض الدول الأوروبية ، بجانب ثورات البلقان المستمرة .

ولكن السلطان عبد الحميد ما لبث أن غير سياسته ، فعزل مدحت باشا ثم نفاه ، وأوقف العمل بالدستور ، وفض البرلمان في ١٤ فبراير ١٨٧٨ ، وقيد الحريات ، وظل يحكم ٣١ سنة حكما استبداديا . وبدأ يفكر في تقوية مركزه عن طريق ( الدين ) ، فعاد إلى سياسة ( الجامعة الإسلامية ) ، ورأى إحياء الخلافة حتى يعتبره المسلمون حامى الإسلام ضد الاستعمار الأوروبى ، فدعا الأمم الإسلامية إلى الالتفاف حول الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة التى تحمى الإسلام والمسلمين . وأرسل دعواته إلى جميع البلاد الإسلامية ، وخاصة التى هددها الأطماع الأجنبية مثل مصر والهند وأفغانستان والملايو وغيرها .

لم تكن سياسة عبد الحميد قائمة على تبنى أفكار جمال الدين الأفغانى ، بل كانت فى جوهرها محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد السلطة الزمنية فى الدولة العثمانية بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين على نطاق أوسع

كانت الدول الأوروبية تعترف بأن السلطان العثماني هو في نفس الوقت خليفة المسلمين منذ قرنين من الزمن . ولكن بمرور الوقت طغت السلطة الزمنية على السلطة الدينية ، حتى فقد لقب الخليفة قوته ومغزاه . رأى عبد الحميد أن يقوى مركزه كسلطان بأن يعيد إلى الخلافة مهابتها الأولى ، بإقناع العالم بأن الخلافة والسلطنة شيء واحد وأن يتخذ الخلافة وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية . وهذا جعل الكثير ير بطون بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين الأفغاني ، ولكنها في حقيقة الأمر صلة سطحية غير حقيقية .

نادى عبد الحميد بأن سلطته الزمنية تستند إلى سلطته الدينية ، فهو ظل الله على الأرض ، وأمير المؤمنين ، وخليفة النبي ، وخدام الحرمين الشريفين . وبذلك اكتسب احترام رعاياه المسلمين . وفي الخارج ، كانت سياسته الإسلامية ترمي إلى تقوية مركز الدولة العثمانية ، بأن يكتسب إجلال الملايين من المسلمين المقيمين خارج مملكته والتابعين لبريطانيا وفرنسا وروسيا .

احاط عبد الحميد حياته الخاصة بإطار من التقوى والتقشف ، فكان يقوم بالفروض الدينية على أكمل وجه ، والتف حوله عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين ، وأنشأ معهداً دينياً لتخريج الوعاظ الذين بعث بهم إلى جميع أرجاء العالم الإسلامي ينادون بعبد الحميد خليفة المسلمين . ونجح عبد الحميد في أن يفوز بتأييد شريف مكة فنادى به خليفة وسط الحجاج ، وسخر عبد الحميد الصحافة لتأييد هذه الدعوة .

## سياسة عبد الحميد العربية :

وبجانب سياسة عبد الحميد الإسلامية كانت له سياسة عربية . فقد أرسل دعائه إلى الأقطار العربية ليقنع العرب بأن الخلافة هي أملهم الوحيد في النجاة من الأطماع الأجنبية وأن الجامعة الإسلامية هي طريق النجاة . وكان لهؤلاء الدعاة مهمة سرية قاموا بها ، وهي نشر روح الفرقة والنزاع بين أمراء العرب والقبائل . وكان عبد الحميد يدعو إليه بعض الأمراء ويستضيفهم في الآستانة ويحيطهم بأسباب الترف والترحيب ثم يمنعهم من العودة إلى بلادهم ، كما فعل مع الشريف الحسين بن علي ، الذي أصبح فيما بعد ملكا على الحجاز ، فقد مكث في الآستانة خمسة عشر عاماً ، ولم يعد إلا بعد عزل عبد الحميد سنة ١٩٠٨ .

توّد عبد الحميد إلى العرب عن طريق الاهتمام بمؤسساتهم الدينية والعلمية ، والتبرع لها بأموال وفيرة ، كما اهتم بإصلاح الحرمين والعناية بالأماكن المقدسة ، كما عين العرب في الوظائف الكبرى ، وشكل فرقة وعهد إليهم بأمر تشكيل وتوجيه صنائعه العاملين على مكافحة الاتجاهات الوطنية عند العرب ، فبال بعض هؤلاء حظوة كبرى لدى السلطان جعلتهم قبلة أنظار رجال القصر ، والراغبين في الحصول على امتيازات اقتصادية في البلاد ، ووزراء الدولة ، بل والصدر الأعظم نفسه .

كان عزت باشا العابد ، وهو عربي شامي ، من المعامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس ، وقد قضى ثلاث عشرة سنة ( حتى سقوطه سنة ١٩٠٨ ) في خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان ، فاستطاع خلالها أن يصبح أقوى موظف في المملكة . وأصبح عزت باشا هو المحور الذي تدور حوله سياسة عبد الحميد العربية ، كما أنه كان الموعز إليه ببناء سكة حديد الحجاز .

### نجاح الجامعة الإسلامية :

كانت زيادة الأطماع الأوروبية في العالم الإسلامي والعالم العربي عاملا هاما في نجاح الجامعة الإسلامية ورحب بالفسكرة زعماء عرف عنهم الوطنية مثل مصطفى كامل الزعيم المصري ، فقد كتب يقول : « إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شيء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية ، ولأننا بصفقتنا مسلمين نرى أنها تحمي المسالمين في الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة ، فمملكة الخلافة الإسلامية هي في الحقيقة مملكتنا وقبلتنا التي إليها نلجأ ونحوها نتجه ) .

ساعد على انتشار فكرة الجامعة الإسلامية تقدم طرق المواصلات ، ونهضة الصحافة في البلاد الإسلامية والعربية التي لعبت دورا كبيرا في نشر مبادئ جمال الدين الأفغاني . كما لعبت عوامل اقتصادية هامة دورا كبيرا في

نجاح الجامعة الإسلامية . فقد كانت الأطماع الاقتصادية الأجنبية تسير جنباً إلى جنب مع الأطماع السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار الإسلامية رؤوس الأموال الأجنبية ، واستثمر الأجانب مراقبها ، وأدى الاستعمار الاقتصادي إلى استعمار سياسي ، ورأى المسلمون أن الجامعة الإسلامية تخلصهم من الاستعمارين على السواء .

استمر السلطان عبد الحميد في تنفيذ الجامعة الإسلامية بكل الوسائل الممكنة . ومن أبرز هذه الوسائل مد الخطوط الحديدية ، وكان يهدف إلى توطيد نفوذه في أطراف الدولة التي لم تخضع لسلطانها إلا خضوعاً اسمياً ، وربط الولايات التي بدأ فيها الوعي القومي بهجالة الدولة العثمانية ، مثل سوريا والعراق وكرديستان والحجاز ، وإجبار هذه الولايات على الاندماج في الدولة والاشتراك في الدفاع عنها بتقديم الرجال والأموال .

بدأ السلطان عبد الحميد في تنفيذ سياسة مد الخطوط الحديدية بمد خط حديدي من دمشق إلى المدينة ، وكان ينوي مده إلى مكة ، بدلا من طرق القوافل القديمة . وكان الغرض الظاهر خدمة الحجاج وتسهيل الحج ، بينما رعى عبد الحميد إلى أهداف سياسية وعسكرية . فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة ، فقد طالب عبد الحميد المسلمين بالتبرع للمشروع فانهاالت التبرعات ، وتبرع هو بمبلغ كبير ، وخصم عشرة في المائة من مرتبات الموظفين ، وغطت التبرعات ثلث النفقات ،

ونال عبد الحميد رضا المسامين . أما الأغراض العسكرية ، فقد أراد عبد الحميد تسهيل نقل الجيوش إلى الجزيرة العربية ، وخاصة الحجاز واليمن حتى يضمن استمرار خضوعها للدولة العثمانية .

وصل الخط إلى المدينة المنورة في أغسطس ١٩٠٨ ، ثم أدرك الشريف الحسين بن علي الأهداف السياسية والعسكرية الحقيقية فبدأ يناهض المشروع ، حتى إذا قامت الحرب العظمى الأولى اتفق الحسين والإنجليز على تخريب الخط الحديدي .

استفاد العرب فائدة عظيمة من مد سكة حديد الحجاز ، ولكن فائدة العرب لم تخطر ببال السلطان عبد الحميد الذي هدف إلى مصلحته الخاصة فقط . فإن هذا الخط قد سهل أسباب الانتقال من مكان إلى آخر ، وساعد على سريان الأفكار التحررية في بلاد العرب ، ولعب الخط الحديدي دورا كبيرا في توجيه الحركة العربية ، وبعث القومية العربية .

كتب السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي لعام ١٩٠٧ مايلي : « إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام ، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعورة الدين وغيرته الدينيه ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفرضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وبهذا تفتح له

أبواب الحياة الأخرى، وما تحويه من جنة ونعيم . وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثيل ، فباتوا بنتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادي الذي قد لانجد في جميع أدوار التاريخ ما يحاكي شدته . وهكذا أصبحت إرادة السلطان قانونا في البلاد ، فإذا ما كتب لمسلم بأئس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسي من جانب الحكومة أعلن شكواه من الموظفين دون أن ينسب للخليفة أي عمل سيء » .

كان سقوط السلطان عبد الحميد بعد عزله في سنة ١٩٠٨ نذيرا بموت فكرة الجامعة الإسلامية التي حمل لواءها فترة طويلة . وفي نفس الوقت ، ساعد الحكم الحميدي ( ١٨٧٦ - ١٩٠٨ ) الذي تميز بكبته للحرريات والاستبداد والظلم ، على نمو الشعور القومي عند العرب كما سنرى بعد قليل .